إلى لبنان

صور وخواطر

للأستاذ علي الطنطاوي

لقيني الأستاذ عز الدين التنوخي ، وكنت قادماً من سفر . فقال لي : هلمّ !

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى الجبل نزور أمير البيان ، ورجل الاسلام شكيب أرسلان

قلت : ما أعدل والله بزيارته شيئاً ؛ ولكني آت من سفر ولم أبلغ داري

قال : اطمئن فان الدار في محلها لم تطر ، وما عليك أن تراها غداً ؟

قلت : ما على من شيء ، وسرت معه . ولم أعد أرى السفر شيئاً ، لأني أصبحت في هذه السنين الأواخر كذلك الذي كان (موكلاً بفضاء الله يذرعه) فلا أكاد ألقي عصا التسيار وأحط الرحال من سفر ، حتى أتهيأ لآخر . اطوّف ما اطوّف ، ثم آوي إلى هذه الغرفة الصغيرة أجلس بين ركام الكتب أحسب ما كسبت من هذا العناء الطويل ، فلا أجدني كسبت إلا صوراً في الذاكرة أضمها إلى صور ، وذكرى في النفس أجمعها بذكرى ، وصفحة في دفتري أضيفها إلى صفحة أسعد بتدوينها ، وأسرّ ببقائها ، وإن كنت لا أدوّن إلا الأقل مما أراه وأشعر به ، ولا أذكر إلا التافه مما يمر بي . وإن كنت أعلم أن صور الذاكرة إلى امحاء ، وذكريات النفس إلى ضياع ، وقصص الدفتر إلى السكين والنار لا يزهدني ذلك بها ، ولا يصرفني عنها ، لعلمي أن الحياة نفسها ستموت ، والوجود سيعدم ، ولا يبقى في الوجود إلا الموجد

* * *

وكنا خمسة في السيارة : الأستاذ التنوخي ، وأنا ، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار ، والأستاذ الشيخ بهجة الأثري ، والشيخ ياسين الرداف معتمد المملكة السعودية في دمشق سابقاً ...

خرجنا من دمشق مع الغروب ... وكان اليوم جمعة ، وكانت ليلة قمراء ، فسالت الطرق بالدمشقيين على عادتهم في مثل هذه الليالي فامتلأت جوانب بردى ، والمرجة الخضراء ، والربوة ، ووادي الشاذروان أجمل أودية الدنيا وأحلاها — بخير الفتيان ، وأجمل الفتيات ، وأحلى الأطفال ؛ فلم يكن أمتع للعين ، ولا أشهى للقلب ، من ذلك المشهد . فسرنا في هذا العالم الساحر ، مترفقين متمهلين ، لأننا لا نمشي في طريق وإنما نمشي في بحر من العيون والقلوب والمفاتن جمع كل جميل بارع أخاذ ، حتى بلغنا دمّر :

والحور في دمّر أو حول هامتها
حور تكشف عن ساق وولدان [1]

فوقفنا نمتع الأنظار بحورها وحورها ، وشموسها وبدورها ؛ وأنت مهما عرفت دمشق لا تزال ترى فيها أبداً جمالاً تجهله ولا تعرفه ، ففي كل يوم جمال جديد ، وفي كل مكان فتنة جديدة ، فلا تدري أين تقف ، وماذا تنظر ، وأيا تفضل ؟ أوادي الشاذروان أم جنائن الغوطة ، أم جبال بلودان ، أم العين الخضراء ، أم سهول الزبداني ، أم العيون التي لا يحصيها عدد ؟ ...

سقى الله ما تحوي دمشق وحياها ... فما أطيب اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسن ... يحنّ إليها كل قلب ويهواها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ... ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
سلام على تلك المعاهد إنها ... محط صبابات النفوس ومثواها
رعى الله أياماً تقضت بقربها ... فما كان أحلاها لديها وأمراها [2]

* * *

خلينا الهامة وجرايا بلدة ابن واسانة [3] والوادي كله عن أيماننا ، وأسندنا إلى الجبل نستقبل الصحراء إلى ميسلون بلاط شهدائنا ، ومشهد أبطالنا ، ومبدأ تاريخنا الحديث ، ومثوى الأسد الرابض يوسف العظمة ، الذي وقف هو وأشبال دمشق العزل الأقلاء في وجه ثاني دولة قوية ظافرة ، فما ضعفوا ولا استكانوا

---

(١) شوقي رحمه الله

(٢) ابن النقار

(٣) ولابن واسانة هذا قصيدة طويلة جداً ، من أعجب الشعر القصصي الواقعي يصف فيها جماعة دعاهم إلى قريته ففعلوا معه الأفاعيل ، وهي قصيدة نادر مثالها تلقاها في يتيمة الدهر للثعالبي (ج ١ ص ٣٠٠) المطبعة المصرية

ولا جبنوا ؛ وما زالوا يقاتلون ويدافعون عن العرين ثابتين ماثبتت الروح في أجسامهم ، حتى أعجزهم أن يعيشوا أشرافاً فماتوا أشرافا ؛ فكان موتهم حياة لهذه الأمة التي حفظت العهد وحملت الأمانة ؛ وكانت قبورهم مناراً أحمر في طريق هذا الشعب المجاهد المستميت لن يقف أو يتباطأ حتى يأخذ (الكل) الذي (أعطى) الآن (بعضاً) منه ، ولن ينام حتى يرى هذه الصحراء قد آضت جنات لفافا ، تحمل الزهر الذي لا يسقى إلا بالماء الأحمر الملتهب تحمل زهار الحرية

سيبقى هذا اللحد لتمر عليه الأجيال الآتية ، الأجيال الحرة عزيزة ، فتذكر جهاد أسلافنا ، وتعرف الثمن الذي دفعوه ، ولتعلم ن القوة إن غلبت الحق حيناً ، فان الحق يصنع القوة التي لب بها دائماً

أذكر ما حييت جدار قبر ... بظاهر جلق ركب الرمالا
يم ما أقامت ميسلون ... يذكر مصرع الأسد الشبالا
يب عظمة العظمات فيه ... وأول سيد لقى النبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا ... تجر مطارف الظفر اختيالا
أقام نهاره يلقى ويلقى ... فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالي ... ووسد حيث حال وحيث صالا
إذا مرت به الأجيال تترى ... سمت لها أزيزاً وابتهالا[1]

* * *

ثم أخذت السيارة تصعد بنا في مسالك ملتوية مستديرة تزيغ الأبصار من استدارتها وعلوها ، حتى إذا ظننا أننا بلغنا قنة الجبل تكشفت لنا قنن فاذا نحن لا نزال في الحضيض ، وما فتئنا نعلو ونتسلق وندور حتى حاذينا (بلودان) درة المصايف الشامية ، وبدا لنا فندقها الفخم الضخم أكبر فندق في سورية كلها (إي ولبنان) الذي بنته الحكومة ليملأ الخزانة مالاً والجيوب ذهباً فملأ النفوس فساداً ، والأخلاق انحطاطاً ؛ لما أنشأوا فيه من بلايا وطامات زعموها حضارة ورقيا ، ورأيناها الموت الأحمر والبلاء الأزرق فكنا حين نبيع الأخلاق بالمال كمن يطرد ابنه من بيته ويربي فيه ذئبا ...

ثم عدنا نهبط ، وهذه سنة الحياة : « ماطار طير وارتفع إلا كما طار وقع » ولا علا رجل إلا هبط ، إلا رجلاً علا بعلمه وبأخلاقه ومواهبه ، فذاك الذي لا يهبط أبداً بل يزداد رفعة ، لأن علمه لن ينسى ، وأخلاقه لن تذهب ، ومواهبه لن تضيع ، أما من علا على قوائم الكراسي وأعناق الشعب ، فأحر به أن يسقط مهما استمر علوّه وطال بقاؤه

أقول : إننا مازلنا نهبط حتى انتهينا إلى سهل البقاع الخصب الأفيح الجميل ، الذي يفصل لبناننا (الشرقي) الأجرد المهيب الرهيب الذي ادرّع المهابة ، واتشح بوشاح الخلود ، ولاحت عليه سمات الجلال ، والمجد والوقار ، ولبنانهم (الغربي) المرح الفرح الأخضر الجميل ، الذي ائتزر بالسحر ، وارتدى رداء الشعر ، وكلاهما أخّاذ فاتن ، ولكن الأول جليل والثاني جميل ، والجنات الخالدات والفراديس الباقيات ، في دمشق على سفح لبنان الشرقي ... قال شوقي :

نبئت لبنان جنات الخلود وما ... نبئت أن طريق الخلد لبنان

وأنت حين يحتويك لبنان الغربي تحسّ بجماله وروعته ولكنك تشعر أنك أنت له ، وأنك جزء منه ، ولكنك تحس حين تكون في لبناننا أنه هولك ، وأنه جزء منك ، وشتان بين ماتكون أنت في قلبه ، وما يكون هو في قلبك ، وأنت حين تكون في لبنان الغربي تجد يد الانسان لم تبق من جمال الطبيعة إلا قليلاً ، وتجد ماتجد أكثره في المدن الكبرى ، ولكنك حين تكون في لبنان الشرقي تجد الطبيعة الحلوة الفاتنة التي لم تبدلها يد الانسان ، وإنما احاطتها باطار يحفظها ويظهر جمالها

وقد زعموا الجبلين جبلاً واحداً ، صدعته حوادث أرضيه (جيولوجية) من زمن قديم ، لا أدري متى كان لأني لم أدركه ولا أدركه أبي ، أعني آدم عليه السلام الذي توفي في الأمس القريب . وعلى ذكر آدم ... أليس من العار علينا أن نقيم حفلات الذكرى والتكريم لفلان وفلان ممن خدموا البشرية وننسى هذا الرجل العظيم الذي كان له أكبر الأثر في خدمة البشر ؛ ولم لايفكر الناس في إقامة حفلة تذكارية كبيرة لهذا الرجل ، يشترك فيها عارفو فضله ، ومن (بقي) حقيقة من نسله ؟

* * *

قلت : إن الجبلين كانا جبلاً واحداً ، والأمتين فيها أمة

(١) شوقي رحمه الله

واحدة ، ولـكنك واجد فى هذه المسافة التى لاتتجاوز الساعتين جمهوريتين مختلفتين ، وعَـلَمين متباينين ، وحدوداً كحدود المـانيا وفرنسا ...

ألقاب مملـكة ... ...

وسبحان خالق الهر ، وخالق الأسد ، وخالق كل شيء !

* * *

وأنخنا رواحلنا (أعنى وقفنا سيارتنا ، ولم يكن معنا رواحل ولا رحال) فى شتورة ، عروس السهل ، نستريح فيها قليلاً قبل أن نتسلق بالسيارة الجبل الذى لاتبلغ الطير ذراه ، ونصبح فى نصف طريق السماء . وإذا أنت شئت أن تتصوّر مبلغ مانعلو ، فتصوّر شارعاً طوله قرابة كيلين اثنين ، قد وقف على رأسه ، وكنت أنت فوقه تطلّ على الدنيا من عل ...

علونا فى جبال شجراء ضاحكة ، تجتاز القرى المتناثرة على السفوح والذرى ونرى الينابيع تتدفق من أعالي الصخور ، وتسيل فى بطون الأودية خالة سكرى . وما زلنا فى علو ولفّ ودوران ، حتى بلغنا ظهر البيدر حيث صرنا فوق السحاب ، لا على المجاز أو المبالغة كما يقول الشعراء ، بل على الحقيقة التى يشاهدها الناس كلهم فقد كان السحاب يمسّ الذرى التى تحتنا ويلفح وجوهنا ويحجب عنا السهل والسفوح ، وكنا نعلو عليه أحياناً فلا يبلغنا ولا يمسنا ، ونراه يمر من تحتنا ، أشبه شيء بالغبار الأبيض تحمله الريح . حتى درنا تلك الدورة الكبيرة ، وأشرفنا على وادي (صوفر — حمانا) العظيم أوسع أودية لبنان وأجملها وقد ازدهى بالصنوبر وانتثرت على سفوحه عشرات القرى ولاحت مبانيها العظيمة وقصورها الشمّ

والروابى توسدت راحة السحـــب ونامت على وشاح مرقق
والذرى البيض فى العلاء نسور حومت تكشف الخفي المغلق
نشرت فى الفضاء أجنحها الزهـــر فأسنى بها الوجود وأشرق
والقرى غافلت بأخبية الغيـــب وضاعت بين الغمام المنمق
والينابيع ضاحكات من الزهـــو ترامى فيها السنا وتألق
وتراءى البحر البعيد كحلـم مبهم راجف الخيال ملفق
سرقته السماء فى الأفق النا ئى فمن أبصر الخضمات تسرق[1]

* * *

تمر على الانسان ساعات بل لحظات ينسى فيها هذا العالم المادى ، وهذه الحياة القصيرة الناقصة ، ويحس كأنه يعيش بنفسه حياة أكمل وأجل ، تخالط نفسه مشاعر لا عهد له بها ، ولا يقدر على وصفها ، وتغمر قلبه لذة لا يعرف أى شيء هى ، فيشعر أنه انتقل إلى عالم سحرى جنى عجيب ، كهذه اللحظات التى تمر علينا فى غمرة التأمل النفسى ، أو فى هزة الموسيق ، أو فى نشوة الحب ، أو حين الاستغراق فى العبادة والمناجاة ...

هذه هي اللحظات التى تمرّ عليك حين تشرف على وادى (صوفر — حمانا) أو تجلس فى الشاغور ، أو تصعد إلى عين الصحة فى فالوغا ...

لست أريد الدعاية للبنان ، وما لبنان فى حاجة إلى دعاية ، وما فى لبنان سرير فى فندق ، أو غرفة في دار إلا وقد امتلأت حتى أننا لم نجد فى صوفر وقد وصلناها ليلا مكاناً نبيت فيه ، وكلما دخلنا فندقاً خرجنا منه يخفى صاحبنا حنين الاسكاف ... حتى قادنا المطاف إلى فندق لطيف معتزل ، قاعد فى منتصف الطريق بين صوفر وبحمدون ، ولم يكن بعده فندق نأوى إليه . فتعلقنا بصاحبه ، وتوسلنا إليه وأطمعناه حتى رضى أن يعد لنا مكاناً فى الردهة (الصالون) ففعلنا ، ووضعت لنا سررُ صفار كسرر الجند وطلبة المدارس الداخلية جاء بها من بيته ، فحمدنا الله عليها

* * *

ولما دخلنا الأوتيل : عمامتان عاليتان على رأسى البهجتين : بهجة العراق وبهجة الشام ، وعقال نجدى نخم على هامة أمير من أمراء نجد ، ونحن الاثنان (المطربشان) الأستاذ عز الدين وأنا ، تعلقت بنا الأنظار ودارت حولنا الأبصار ، وحفّ بنا شباب يسلمون علينا . فقلنا : وعليكم السلام يا إخواننا ... فما راعنا إلا أنهم ضحكوا وضحك الحاضرون ...

فقلت لأحدهم : من فضلك قل لى ، لماذا تضحك ؟

هل تجد فى هيئتي ما يضحك ياسيدى ؟

فازداد الخبيث ضحكا ، فهممت به . فوثب الحاضرون وقالوا : يا للعجب ! أتضرب فتاة ؟

قلت : وافضيحتاه ! فتيات بسراويل (بنطالونات) وحلل (بذلات) ؟ وأين الشعر وأين اللحم ؟

(١) أنور العطار

قالوا : أنت فى لبنان

قلت : عفواً ، لقد حسبت أنى فى لبنان[1]

وفررنا ونحن مستحيون . نحاول ألا نعيدها كرّة أخرى ولما خرجت فى الليل لمحت فى طريق واحدة من هؤلاء النسوة فحيتنى ، فقلت لها : مساء الخير يا مدموازيل

فقالت : مادموازيل إيه يا وقح ؟

قلت فى نفسى إنها متزوجة وقد ساءها أن دعوتها بالمدموازيل (الآنسة) وأسرعت فتداركت الخطأ وقلت : بردون مدام

قالت : مدام فى عينك قليل الأدب ، بأى حق تمزح معى أنا (فلان) المحامى

قلت : بردون ، بردون

وولّيت هارباً ، فذهبت إلى صاحب الأوتيل فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة ، فدهش منى ووجم لحظة ؛ ثم قدر أنى أمزح فانطلق ضاحكا

قلت : إنى لا أمزح ، ولكنى أقول الجدّ وقصصت عليه القصة ...

قال : وماذا نعمل ؟

قلت : لوحات صغيرة مثلا من النحاس ، كالتى توضع على السيارات لبيان رقمها ، أو على الدراجات ... يكتب عليها رجل . امرأة . تعلق فى الصدر تحت الثدى الأيسر أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلا أو دجاجة ، أو ... أو شاة أو خروف ، أو شىء آخر من علامات التذكير والتأنيث ...

فراقه اقتراحى وقبله على أنه نكتة ، ولكنه لم يفكر بالعمل به لأنه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق ما دام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين ؟

* * *

ولم نطل الاقامة فى صوفر ، لأننا لم نجد الأمير شكيب فعدنا أدراجنا إلى دمشق

(دمشق) على الطنطاوى

(١) عنيت لبنان الشرقي العربي وعنوا لبنان الغربي (المعرب)

الأدباء المحترفون

للأستاذ مصطفى جواد

الأدب فى كل أمة غذاء النفوس الصافية من كدر المادية المُبرّأة من أمراض الطمع والجشع ، السالمة من إسار الكايد والخدائع ؛ والأدباء فى كل شعب هم الطبقة الرفيعة فى المراتب البشرية ، المحلقة فى سماء الصفاء بأجنحة لطف أرق من الهواء . والمادية لا تؤمن بدين الأدب ولا عطف لها على البشرية ولا رحمة ، فالأديب نورانىّ والمادة بهيمية ترجع بالانسان إلى عصور كان ينازع فيها الوحوش فرائسها ، ويعد الشبع والرى من الدنيا نفائسها ؛ وكلما رق العقل فى الصناعات انخفضت العاطفة واستبدت المادية واستحكمت الوحشية ، فلولا الأدباء بين الناس كالنجوم الزهر[1] فى السماء الدنيا لبدا ليل المادية أشد ظلاماً وأهول منظراً . ولعله سيأتى زمان يتخفى فيه الأدباء كما كان الأنبياء يتستّرون من الناس فى أول الاستبداء ، ورأس المحنة وأيام الدعوة ، خشية الاستهزاء والازراء والتعذيب والتقتيل ، وإذن لا يعصم الأدباء يوم ذاك من ضربة المادية الأشبه جمهورية أفلاطون وإلا مثل المدينة الفاضلة التى أفكر فيها فيلسوف فاراب . أما مافعله الشيوعيون لأدباء الشيوع فى روسيا من قصرهم فى قرية نزهة وامدادهم بضرورى المادة ليستهتروا بالاستشاعة ويدعوا إلى التشارك فهو أخلق بالأدب المبتذل والشعور المنتحل والعواطف المطوفة والنفوس المأسورة والانفعالات المكبوتة ، فما أغنى الشيوعيين عما فعلوا وما كان أحرى الأدباء بالإباء على هذا الازدراء ! وكلما علت المادة امتاز الأدباء عن أهل المادة وعبدة الحيوانية ، فيعيشون منفردين معتزلين كالمتصوفة فى الربط الهادئة إلا من تسبيح وتحميد ، وكالرهبان فى الأديار الواجمة إلا من تكفير وارتسام ، يزرعون فيحصدون ويغرسون فيجتنون ، لا تجارة تلهيهم ولا تكالب يقسيهم ولا انخداع يؤذيهم ، فهم حينذاك صفوة

(١) الزهر جمع أزهر وزهراء ولا يجوز أن يقال « النجوم الزهراء » لأنه لم ينطق به فصحاء الأمة ولا أثبته قواعد لغتها ، وإن جاء فى الشعر قافية فهو من كبائر الضرائر